

تنوع الدلالة في التأويل الأدبي

الدكتور: قنيسي عبدالقادر

جامعة سيدي بلعباس - الجزائر

العمل الأدبي له كينونة خاصة، لهذا تختلف قراءته من ناقد لآخر، ولهذا تؤول الأعمال الأدبية على اختلاف ثقافات أصحابها، لأن الفهم يختلف من مؤول لآخر، والنص دائما هو الذي يفرض طريقة معينة في كيفية استنباط المعاني المتعددة، والثقافات المتنوعة لدى المؤولين تفرض تنوع الدلالات من المقروء سواء كان أدبيا أم سياسيا أم تاريخيا أم اجتماعيا، لأن غاية التأويل القصوى هي الفهم الذي يعد خاصية فردية عند كل ناقد أو قارئ.

الكلمات المفتاحية: البيان، الكلام الأدبي، التأويل، الدلالة، العمل الأدبي.

Abstract

The literary work has a specificity in which the reading changes from one critic to another; this is why literary works are interpreted according to the culture of its authors. The text is the one that imposes the way or the manner in which one draws the different contents and the different cultures of the interpreters imposes the semantic diversity. The reader be it (literary, political, historical or social) The ultimate goal of interpretation is understanding, being a peculiarity for each critic or reader.

Keywords : literary work, critic, semantic diversity, interpretation

توطئة : لما كان العمل الأدبي كائنا مستقلا له كينونته الخاصة وأسيفته التي لا تنبغي لغيره، وهي التي تشغل القارئ (المؤول) فإن الأداة التي يوظفها قد تختلف من ناقد حاذق إلى فطن إلى ثالث يجتر الكلام، فتأويل الكلام الأدبي من حيث بناؤه ونسجه اللغوي وتركيبه البياني يزيدنا علما به، بخلاف تفسيره أو تحليله على ضوء آرائنا وانطباعاتنا والظروف التي أحاطت به، والعوامل التي كانت سببا في إنتاجه، كلها مجتمعة لا تقربنا من العمل الأدبي والعمل الأدبي ليس بالضرورة تدفقا للمشاعر، مهما كانت درجة صدقها، لذلك نجد النقد، يلجأ إلى تفسير الرموز وفك ملغز الأساليب غير المباشرة في الأعمال الأدبية» بهذا نتبين أن الأشياء قبل وجود اللغة لها وجودها الرمزي، الذي أوحى بالرمزية اللغوية فأصبحت الأشياء ذات دلالة إشارية وأصبحت الإشارة اللغوية – المستوحاة منها والمعبرة عنها – التكوينية المؤلفة لها نظاما أو نسقا إشاريا، بهذا نلاحظ أن اللغة إشارات ذات دلالات هي المسميات، وأن اللغة كلها عملية ترميز للواقع الخارجي والمتصور الذهني «¹ لأنه يؤمن أصلا بالتجسيم بدل التجريد، وبالتصوير بدل التقرير، وبالدقة بدل الإبهام، ما يقربه من الحقيقة والعلم ليجعل المؤول موضوعيا كالعالم في استخلاص قوانين الطبيعة مثلا.

تنوع الدلالة في التأويل الأدبي..... مجلة فصل الخطاب

كذلك المؤول يستنبط (القوانين) (القواعد) من النصوص الأدبية فيغدو التأويل فعالية أدبية فكرية ينهض بها بعد القراءة الدقيقة للنص، ولا يستطيعها إلا من امتلك ذهنا عميقا وعقلا راجحا، ونستطيع أن نلاحظ شيئا من البراعة العلمية في تناول الكلمات إذا وقفنا على الخصوص أمام العبارات ذات الطابع الاستعاري، كان مفهوم الاستعارة ضيقا في التراث النظري، فقد ميز البلاغيون بين الحقيقة والمجاز تميزا يتسم بالحدة، وكانت الحدة مطلباً أساسياً لأن مفهوم الحقيقة كان يجب أن يكون واحداً في المجال الأدبي والمجال غير الأدبي²

هكذا نجد التأويل يحتفظ بخاصية امتلاك فهم متجدد للنص من طرف الذات المؤولة، ذلك أنه (التأويل) يعني تجاوز التفسير التقليدي إلى تبين المعاني المتعددة التي يحملها النص في أماكن متعددة من زواياه قد يظهرها وقد يكتنئها على حسب قدرات المؤول إذا أحسن التعامل مع النص، وذلك عن طريق تقصي البنيات التحتية الكامنة في النصوص وبخاصة الأدبية منها ليبقى على مسافة منها، وذلك من أجل الإصغاء إلى ما يقوله وقراءة المكبوت والمكتوب في قوارع الأسفار، والقراءة التأويلية تكشف احتمالات النص الممكنة دون ترجيح احتمال على آخر فقد تكون كل الاحتمالات صائبة لأن النص الأدبي الجيد هو إمكانية مفتوحة³

استنادا على ما سبق يظهر أن فاعلية التأويل تحتل التعددية إضافة إلى الاختلاف، لأن أبعادها فردية وأقصد هاهنا (فاعلية التأويل) حيث يكون النص الأدبي هو منطلق المؤول الذي يلججه ويخرج منه في هذه العملية الذهنية التي ترتكز أبعاده على الفهم الذي يتوسط النص، والمؤول يفهم من هذا أن عملية الفهم تتم بمساهمة عمليات متنوعة تشكل في كليتها ما يسميه "شأنك" و"سميت" «عملية الفهم الأكبر» وحين تحقق تلك العمليات في الاشتغال بشكل فعال فإن الفهم برمته سيتعثر، ومن ثم فإن المستمع سيعتبر نصا ما غير منسجم«حين تخفق عملية فرعية من عملية الفهم الأكبر في الاشتغال بنجاح لسبب من الأسباب السالفة، وعلى خلاف هذا يعد نص ما منسجما حين تسير عمليات فهمنا بشكل فعال»⁴.

انطلاقا من هذا التصور فإن الفهم هو محاولة المؤول إدراك المعاني والدلالات التي تنفجر في النص، وهو يستلزم دوما إعادة تجديد هذه المعاني بين مؤول وآخر، وهناك أيضا إشكالية التحيين إذا كان النص يتعلق بحقبة زمنية مختلفة عما وجب تفكيكه واستنطاقه بغية الاقتراب من فهمه «فإن الدارس يسعى إلى جعل الفهم يحاول من خلال احتواء النص واستكناه حقيقته في تعددها، ذلك أن النظر إلى التراث من زاوية تاريخية يولد إحساسا بالفهم»⁵

لا بد أن يتقيد المؤول إلى التراث البلاغي فإنه يستند إلى فهمه الخاص الذي تتفاعل فيه مكونات سياقه العام، بمعنى أنه محكوم بأفق وانتظارات تصدر عن طبيعة التساؤلات

والقضايا المطروحة في شتى أشكال البلاغة، سواء كانت بلاغة ما لم يقله النص / أو بلاغة عجز عن إدراكها المؤول / أو البلاغة التي سكنت عنها المؤلف / أو البلاغات المنطوية في بطون النصوص ولا يقدر عليها إلا القارئ الحصيف والمؤول القدير الذي يملك قدرة المطاردة والملاحقة دون ملل ولا كلل.

يضاف إلى هذا كله أن قوة النص وأهميته تقاسان بمدى إمكانه أن يكون معاصرا وأن يثري المعرفة الحاضرة، ومن هنا يكون الفهم هو المكون الجوهرى لعملية القراءة، غير أن فهم النص هو دائما أن تمارس التأويل، ومن ثمّ يكون التأويل هو الشكل الظاهر للفهم.

لا مرأ أن (الفهم، القراءة والتأويل) وجوه متعددة لعملة واحدة يستدعي كل منها الآخر ويمهد السابق منها لللاحق «إذا كانت حياة العمل الأدبي لا تنجم عن وجوده في حد ذاته، بل عن التفاعل الذي يتم بينه وبين الإنسانية، فإن الأعمال الأدبية لا يمكن ترتيبها في تاريخ منتظم، إلا إذا لم نكتف بإرجاع تتابعها إلى الذات المنتجة وحدها بل وإلى الذات المستهلكة أيضا، وبعبارة أخرى فإن التاريخ الأدبي الجديد يجب أن يقوم بالدرجة الأولى على علاقة التداخل بين الإنتاج والتلقي»⁶.

ومهما يكن من أمر فإن دراسة ظاهرة التأويل في بيئات مختلفة (فلسفية -اجتماعية- سياسية-قانونية-أدبية) تشعر بتقارب بين ما تهدف إليه الظاهرة كممارسة وبين الدرس الأدبي بعامة (سردى-شعري) لأنها تحاول الكشف عن الدلالة الثانية المجازية للكلمات، وهذا أحفل بعناية الأديب وتقديره، وأكثر ما يتجلى التأويل في المجاز والاستعارة والكناية والصور البلاغية فالمجاز هو إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي⁷.

لا بد أن نشير إلى أن التأويل تتضارب وتتشعب آفاقه حين يلامس الجانب الأدبي البلاغي لأن التصوير في البيان العربى أشكاله لا تعد ولا تحصى «إن كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه من العقل لضرب من التأول فهي مجاز»⁸.

نستنتج من القول السابق أن النص البلاغي لا يقول الأشياء بحرفيتها ولا بشكلها المباشر، وإنما يلجأ إلى وسائل تستند إليها البلاغة العربية تجعل هذه الأشياء تتمثل في اللامباشر وتظهر في أشكال متفاوتة عندما يلجأ الأديب إلى الكناية والاستعارة والتلويح، وإلى التعريض والتضمين. والمعاني في المجاز الاستعاري تتفاعل فيكون التوسع الذي يحدث بالضرورة غموضا في النص «أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل»⁹.

يعد التأويل وجها ثانيا من وجوه تلقي النصوص الأدبية، إذ من طبيعة النص الأدبي أن يقوم على الاختلاف والتعدد، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أن الانسجام في النص الأدبي

تنوع الدلالة في التأويل الأدبي

لا يحصل من خلال توافق وترابط المعاني، بل من تناقضها، وهذا دليل على حداقة الصانع الذي ينقل المادة من شكل إلى شكل آخر مخالف لها تماما فـ « الأشياء المشتركة في الجنس المتفقة في النوع تستغنى بثبوت الشبه بينها وقيام الاتفاق فيها عن تعمل وتأمل في إيجاب ذلك لها وتثبيته فيها وأنها لصنعة تستدعى جودة القريحة والحدق الذي يلطف ويدق في أن يجمع أعناق المتنافرات المتباينات في ريقه ويعقد بين الأجنبات معاهد نسب »¹⁰

في المجاز تتبدل وتتغير المادة اللغوية، إذ الكلمات والألفاظ لا تنبئ بما وجدت له أصلا، لأن التركيب اللغوي أضفى عليها صبغة وسمّة جديدة تلبسها لبوسا قشيبا، ليصبح معناها الجديد ضمن البلاغي مغايرا لمعناها القاموسي دون أن تفقد صلتها بمعناها الأول و« باعتبار أن الإنسان إذ يتكلم إنما يستعمل جملة ذات معنى معين ينجر بها عملا ما أو يعبر عن معنى يقصده هو، والفرق بين معنى الجملة ومعنى المتكلم هو أن الأول يتحقق بما يحكم بنية الجملة ووحدتها المكونة من مواضع، أما الثاني فيتحقق عند استعمال المتكلم لهذه الجملة وقد يتطابق مع معناها وقد لا يتطابق، وإذا كان التواضع قد جعل المعنى الحرفي ثابتا فإن الاستعمال قد جعل معاني التلفظ متغيرة عارضة تزول بزوال أسبابها ومقامها وتتغير بتغيرها »¹¹.

لعل اللغة تتبدل بين المتكلم والسامع، إذ إن المتكلمين بلغة ما يتواضعون على بعض الاستعمالات فتتحول من الخاص الفردي إلى العام المشترك ويتحول الطارئ العارض إلى ثابت قار، وبذلك تنشأ مواضعة فرعية على الأصلية، فتتمخض بعض الاستعمالات لإنجاز الأعمال غير المباشرة وتختص بها اختصاصا يجعل الجمل أو الألفاظ أو الكلمات المستعملة تكاد تغادر معناها الأصلي لتلتصق بالمعنى الخفي، وكأنها لم توضع في الأصل إلا له وهي ميزة ما هو أدبي .

« كل نص يمثل بمقتضى ذلك " أصلا " بقدر ما يمثل " فرعا " أما أنه يمثل أصلا فبمعنى أنه يجسد لحظة قطع ما مع ما سبقه، ذلك لأنه من حيث الأساس، يستمد مقومات وحوافز تبنيه الكبرى من وضعياته الاجتماعية المشخصة، كما أنه يمتلك نسيج بنيته عبر الإمكانيات والاحتمالات والأفاق المعرفية والأيدولوجية المتاحة، في نطاق هذه الوضعية ولهذا يصح النظر إلى كل نص على أنه أصيل كائنا ما كانت صيغته ومستوياته وطاقاته وأفاقه، هنا هي ضبط منطقي اصطلاحي للنص في حدود انتمائه (تحدراته) الضرورية لعصره داخلا وخارجا ولتاريخه ولتراثه، أي أنها مرة أخرى هنا في هذا السياق حاصل تحصيل للقول بأنه لا سبيل على التشكيك في أنه (أي نص) ينتمي لوضعية اجتماعية مشخصة ما »¹²

لا ضير أن المعنى الأصلي للكلمات أو الجمل أو النصوص تتنوع حوله المعاني الجانبية، مثل الصانع الذي يصنع من المادة الواحدة أشكالا عديدة ومتنوعة، والشاعر هو صانع أيضا،

لأنه يستخدم الكلمات استخداما جديدا لتشكيل صور جديدة، وذلك بفضل ما لهذه الكلمات من ظلال وإيحاءات.

«لا شك في أن للكلمات الشعرية خصوصا وغير الشعرية عموما هنا شؤونها وشجونها وحالاتها، التي لا يمكن إغفالها أو التعاطي السريع معها، أو التغاضي عن حساسيتها المؤثرة، لأن الكلمات في هذا الصدد وداخل هذه الرؤية تقول ما لا نعرفه، أو نعرف ما لا نعيه، الكلمات لا تعكس شيئا، الكلمات تخلق أشياء، ولكن هذا الخلق نفسه شديد الارتباط بالقائل، وميراث اللغة والثقافة والمرسل إليه»¹³.

كلما كانت ذخيرة المتلقي الثقافية والأدبية أغنى، إضافة إلى مقدرته العقلية التخيلية والأدبية كان أقدر على ملء فراغات النص والتمتع بلذة اكتشافه الحقيقية «فالثقافة تولد المعرفة والمعرفة تضاعف كثافة المعجم اللغوي الذي لا يتوقف عند حدود الكثرة والازدياد، بل يغوص في عمق التجربة ليحقق مع حركيتها الباطنية جدلا عميقا تتحول فيه العملية الشعرية إلى فتنة للمتناقضات اللغوية»¹⁴.

يأتي المعنى ممثلا، وينجلي حين يحوجنا إلى طلبه بالفكرة وتحريك الهمم لمعرفته والبحث عن أسرارها، إذ ما كان منه ألطف كان امتناعه علينا أكبر، وإبائه أظهر واحتجاجة على التستر لحاجة التأويل. «لا يراد من الألفاظ ظواهر ما وضعت له في اللغة، ولكن يشار بمعانيها إلى معانٍ أخرى»¹⁵.

لا يختلف في الأمر اثنان أن نعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بنا هذا المعنى إلى معانٍ أخرى كثيرة، ومدار الأمر على ما في النص الأدبي من ضروب للتعبير بالطرق اللامباشرة، وهكذا تبدو المعاني الثواني معاني إضافية على المعنى الأصلي الذي تحدده الدلالة الوضعية بالألفاظ وهذه المعاني الثواني أو الإضافية ليست على غير علاقة بالأصل، بل إن هذه العلاقة الأصل هي التي تضمن سلامة المعنى الثاني.

في المجال الأدبي نتوصل إلى المعنى المقصود في المجازات وغيرها وذلك بمساهمة عوامل عديدة تشترك في هذا الحقل المعقد والذي إن أكثرنا القول فيه فإن الكلام على الكلام مثير ومغن، منها التذوق الذي يوافق الطبيعة الأدبية لانتماؤه إليها، «فقوام هذا التذوق يستمد من اللغة نفسها وما كان حولها من أبحاث تتصل بالجملة من حيث اللفظ المفرد وأحكامه الإعرابية وكذلك الإسناد ووجوه البلاغة فيه»¹⁶.

والتذوق يدعم الميول ويسند عملية الفهم كما يدعو بإلحاح إلى التعلق بالأثر الأدبي، وقد ساعد على قيام علوم حول القرآن الكريم، تمثل نوعا من تذوق النص الديني منها، على سبيل التمثيل لا الحصر:

تدعيم الدلالة في التأويل الأدبي

1. علم معرفة إعجاز القرآن: الذي صنف فيه الرماني والخطابي والجرجاني وغيرهم لا يحصى.
2. علم معرفة أقسام القرآن : وقد احتل فيه ابن القيم الزعامة بكتاب البيان
3. علم بدائع القرآن : ويشمل أنواع البلاغة التي جاءت بها آيات القرآن

« فالفقه أساسه هو فقه النوازل بلغة المغاربة أي فقه الواقع بلغة العصر، وما لم ينزل النص على نازلة يظل دائرا في الهواء حائرا، لا زمان له ولا مكان وعلى هذا النحو يصدق النص في الواقع، والواقع يجد تأويلا له وقراءة في النص لذلك تلزمه الإحصائيات الدقيقة، من يملك ماذا ؟ ...فالفقه المباشرة أشد تأثيرا في الناس وأبلغ من تأويلات النصوص وإحصائيات الواقع وقد برع بعض المشايخ والخطباء في ذلك تملقا لأذواق الجماهير¹⁷ »

إن التمرس بالدرس الأدبي وإدراك الأساليب البلاغية يعين كثيرا على تذوق النص الديني، وعلى استكشاف علوم تشمل هذا الحقل، مما يساعد على فهم النص ثم تأويله بما يوافق مقتضاه .

وقد عدد الجرجاني ما يتعلق بمؤول النص الديني من معرفة الأسلوب ومقاصده، وتذوق مراميه ومغاليقه، حتى يتجنب قدر المستطاع الوقوع في فاسد التأويل « لا بد لكل كلام تستحسنه ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسنك ذلك جهة معلومة، وعلة معقولة وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل وهو باب من العلم إذا أنت فتحت، اطلعت منه على فوائد جلييلة، ومعان شريفة ورأيت له أثرا في الدين عظيمًا وفائدة جسيمة، ووجدته سببا إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل، وإصلاح أنواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل¹⁸ »

إذا كان التأويل الأدبي لم يخرج في مفهومه عن الإطار العام للتأويل بصنوفه المختلفة من صرف للفظ عن ظاهره، للتعرف على ما وراء هذا الظاهر، والبحث في دلالات متعددة وانتفاء المناسب منها للنص المؤول والمحتملة المنسجمة والمعطى النصي، إلا أنه في حاجة إلى تذوق، وخاصة أن الأسلوب الأدبي زاخر بألوان التمثيل والتشبيه والإشارات والتلميحات التي هي رموز تحمل وراءها معان كثيرة :

« وتعد العلاقة بين المجاز والحقيقة في قراءتها للإنسان مثالا لهذا التحول والتغير في المعنى، لقد ظلت بين المجاز والحقيقة علاقة ضدية في التفكير البلاغي القديم، على رغم علاقات المشابهة التي توجيها البلاغة بين طرفي المجاز والحقيقة، لكن لارتباط المجاز بالخيال أصبح التصور العام له أنه مضاد للحقيقة، وقد تسرب معنى العلاقة هذه إلى التفكير الفلسفي الذي راح يضح من التعبيرات المجازية التي يعدها تشويشا للفكر ونقائه »

من ينكر أن النص الأدبي كيان تفرزه علاقات متشعبة من التجارب التامت بموجها
أجزاءه، ما يجعله قابل للتأويلات المتنوعة
لأنه في الأصل يملك عدة مستويات من التعبير، وعدة دلالات خفية وكثير من المعاني
الظاهرة، وفعل القراءة يستنبت ما شاء .
مراجع البحث وإحالاته:

- 1 - أحمد البحري - التأويل منهج الاستنباط في الإسلام دراسة في التاريخ والتراث والفكر تكشف عن معالم منهج الاستنباط عند الرسول وأهل البيت والصحابة دار التأويل للطباعة والنشر ط. 01 - 1998 ص 299 .
- 2 - مصطفى ناصف - اللغة والتفسير والتواصل / عالم المعرفة 193 سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت / كانون 2 1995 ص 82 .
- 3 - محمد عزام / اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب .. إلى المكبوت ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب وزارة الثقافة - دمشق 2008 ص 73 .
- 4 - محمد خطابي / لسانيات النص- مدخل إلى انسجام الخطاب - المركز الثقافي العربي الدار البيضاء / ط 02 2006 ص 78 .
- * (سماه النقاد القدماء تسميات مختلفة : الجرجاني : التعريفات « إن التأويل هو الترجيع وفي الشرح صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا للكتاب والسنة »
ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن» ألفت هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن ، مستنبطا ذلك من التفسير ، بزيادة في الشرح والإيضاح وحاملا ما لم أعلم فيه مقالا لإمام مطلع على لغات العرب، لأرى به المعاند موضع المجاز وطريق الإمكان ، من غير أن أحكم فيه برأي وأفضي عليه بتأويل «
- 5 - خالد سليكي - الخطاب النقدي بين إدماج التراث وأفق التأويل سليكي إخوان - طنجة ط 01-2007 ص 181 .
- 6 - عبد الكريم شرفي/ من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة دراسة تحليلية نقدية في النظريات العربية الحديثة / منشورات الاختلاف الدار العربية للعلوم ناشرون ط 01-2007 ص 158 .
- 7 - محمد عزام - التلقي والتأويل بيان سلطة القارئ في الأدب دار الينابيع دمشق ط 01-2007 ص 204 .
- 8 - عبد القاهر الجرجاني - أسرار البلاغة - م.م.س ص 356 .
- 9 - عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز م.م.س ص 258 .
- 10 - عبد القاهر الجرجاني - أسرار البلاغة م.م.س ص 136 .
- 11 - بسمة بلحاج / رحومة الشكلي - السؤال البلاغي الإنشاء والتأويل - دار محمد علي للنشر تونس ط 01 . 2007 ص 210 .
- 12 - طيب تيزيني / النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة دار الينابيع تونس ط 02 - 2008 - ص 399 .
- 13 - محمد صابر عبيد / سيمياء الموت تأويل الرؤيا الشعرية قراءة في تجربة محمد القيسي دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع دمشق 2010 ص 46 .

- 14 - محمد صابر عبيد / إشكالية التعبير الشعري كفاءة التأويل / تجربة في القراءة الجمالية ***** يدعم من وزارة الثقافة الأردنية _عمان - ط01 / 2007 ص15 .
- 15 - عبد القاهر الجرجاني - أسرار البلاغة .م.م.س ص260 .
- 16 - السيد أحمد عبد الغفار - التأويل الصحيح للنص الديني - دار المعرفة الجامعية - كلية الآداب جامعة الإسكندرية 2003 ص70 .
- 17 - حسن حنفي / الوحي والواقع تحليل المضمون - مركز الناقد الثقافي دمشق ط01 2010 ص14 .
- 18 - عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز .م.م.س ج1 ص33 .